تمرد قوات فاغنر الخاطف: المدلولات والتداعيات

واثق السعدون

ما زالت الصورة الذهنية لموقف بوتين من مصير قوات الفاغنر وقائدهم مشوشةً, خلال كل الخطابات التي ألقاها بوتين بعد انتهاء التمرد, نجده مرةً يصفهم بالأبطال الوطنيين, ومرةً يصفهم بالخونة والمتآمرين. كذلك تصريحات القيادات العسكرية الروسية حول مصير الفاغنر هي الأخرى متباينة.

هنالك شعور عام بأن هنالك حلقات مفقودة في سلسلة تطورات التمرد الخاطف الذي قامت به قوات فاغنر الروسية غير النظامية في يومي24/23 حزيران الماضي, والذي استمر لحوالي 24 ساعة, ثم انتهى بطريقة دراماتيكية ذات نهايات سائبة. كل المهتمين بشؤون روسيا يفتشون الآن عن الحيثيات المخفية التي لم تكشف للآن عن ذلك التمرد, لعلها تساعد في فهم واستيعاب المواقف التي ما زالت مبهمة ضمن سياق ذلك الحدث. حيث أن بداية ذلك التمرد, وسرعة تصاعد الحوادث فيه، ثم انتهائه بتلك الطريقة "الباهتة"، أظهرت هشاشة كبيرة في الأوضاع السياسية والأمنية في روسيا الاتحادية، لا تنسجم مع المكانة المرموقة التي تتبوأها روسيا وقواتها المسلحة في التصنيفات والمعايير العالمية، بل وحتى في تقديرات أعدائها لها. في العام 1939 قال ونستون تشرشل، رئيس الوزراء البريطاني الأسبق، بأن روسيا هي "لغز في داخل لغز ملفوف بالغموض"

يوم مليء بالمفاجئات

تفاجأ العالم في ليلة 24/23 حزيران الماضي بإعلان يفغيني بريغوجين

قوات فاغنر الروسية غير النظامية، بأن القوات الروسية النظامية نفذت هجمات جوية على مواقع قواته، خلفت العديد من القتلى والجرحى في صفوف قوات الفاغنر، وأنه قرر محاسبة القيادات العسكرية الروسية التي أمرت بتنفيذ تلك الهجمات "بنفسه"، متهماً وزير الدفاع الروسي الجنرال سيرغي شويغو ورئيس الأركان الجنرال فاليري غيراسيموف بالوقوف وراء تلك الهجمات.

كبرت المفاجأة، بعدما شاهد العالم في تلك الليلة من خلال شاشات التلفاز ومواقع التواصل الاجتماعي إندفاع قوات الفاغنر عكس اتجاه الجبهة في أوكرانيا، بأرتال عسكرية منتظمة من القطعات المدرعة والآلية، عابرةً الحدود الأوكرانية-الروسية باتجاه مدينة روستوف-نا-دونو في جنوب روسيا الاتحادية، وهي عاصمة المقاطعة الفيدرالية روستوف أوبلاست، التي تضم مقر قيادة العمليات العسكرية الروسية في الحرب الأوكرانية.

مع انتصاف نهار يوم 24 حزيران كانت قوات الفاغنر تسيطر على جميع مواقع القوات الروسية النظامية في مقاطعة روستوف ومقاطعة فورونيج الجنوبية المجاورة لها، بما فيها مقر قيادة العمليات العسكرية الروسية والمطار الرئيس في روستوف. فضلاً عن توجه أرتال كبيرة منها نحو العاصمة موسكو. تخلل ذلك ورود أنباء شبه مؤكدة ومدعمة ببعض الفيديوهات عن قيام قوات الفاغنر باسقاط بعض مروحيات الجيش الروسي التي حاولت استهدافهم. تلك التطورات أوحت لجميع المراقبين بأنهم أمام تمرد عسكري مكتمل الأركان تقوم به قوات فاغنر. بريغوجين أطلق على تمرده أسم "مسيرة العدالة".

في خضم ذلك خرج الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بخطاب شديد اللهجة من الكرملين، واصفاً ما جرى بأنه "تمرد مسلح سيتم الرد عليه بشكل قاس وساحق"، وأن ما حدث هو "خيانة داخلية وطعنة في الظهر"، وأن "الذين نظموا هذا التمرد المسلح ورفعوا السلاح ضد رفاقهم في القتال قد خانوا روسيا وسيتحملون مسؤولية ذلك"، وتابع بوتين "أن الطموحات والمصالح الشخصية لمن قرر تنفيذ هذا التمرد دفعهم لخيانة البلد". لم يتأخر بريغوجين في الرد على خطاب بوتين، ووصفه بتسجيل فيديو بثه بريغوجين من مقره في روستوف بأنه "خطاب مخيب للظن"، وأن "الرئيس بوتين مخطئ بشكل كبير فيما يخص خيانة الوطن"، وأضاف بريغوجين" نحن وطنيون، وأولئك الذين يعارضوننا اليوم هم الذين تجمعوا حول الخيانة" بحسب تعبيره، و"أنه ورجاله لن يسلموا أنفسهم لأي جهة

تطلب منهم ذلك، سواء طلب منهم ذلك الرئيس أو جهاز الأمن الفيدرالي أو غيرهم". وان قواته مستمرة بالتوجه إلى موسكو للقضاء على الخونة الحقيقيين والفاسدين في القيادة العسكرية الروسية-بحسب وصفه-. حينها وصف بعض السياسيين والقادة العسكريين الروس ما يجري بأنه "إنقلاب عسكري".

قبيل حلول مساء يوم 24 حزيران, تواردت الأنباء عن وساطة رئيس بيلوروسيا ألكسندر لوكاشينكو لحل هذه الأزمة, وبحسب بيان الرئاسة البيلوروسية حول هذه الوساطة فأن لوكاشينكو كان يجري اتصالاته مع بريغوجين منذ ظهيرة ذلك اليوم بالتنسيق مع الرئيس بوتين, وأن لوكاشينكو تمكن أخيراً من اقناع بريغوجين بالعدول عن فكرة اقتحام موسكو. بعد الإعلان عن وساطة لوكاشينكو أصدر بريغوجين تسجيلاً صوتياً ليعلن فيه قبوله بتلك الوساطة, جاء فيه أنه سيوقف تقدم أرتال الفاغنر التي وصلت حينها إلى مسافة 200 كم فقط من موسكو، وسيعيدهم إلى قواعدهم السابقة "تجنباً لإراقة الدماء الروسية". بيان الرئاسة البيلاروسية أشار إلى إن مبادرة لوكاشينكو تتضمن منح عناصر فاغنر حصانة قانونية، بالإضافة إلى النظر في تنفيذ بعض مطالب قائد فاغنر. بعد ذلك مباشرة، في ذلك المساء المليء بالمفاجئات، صرح الناطق باسم الكرملين ديمتري بيسكوف بأنه سيتم إسقاط الدعاوى القضائية ضد بريغوجين وسيغادر إلى بيلاروسيا!

تساؤلات وسيناريوهات واستنتاجات

هذا الكم من الأحداث الخطيرة في يوم واحد، أثار عدة تساؤلات، وتلك التساؤلات فتحت المجال لطرح عدة سيناريوهات لتفسير ما حدث. التساؤل الرئيس كان حول ضعف ردة فعل القوات العسكرية الروسية تجاه ذلك التمرد، بالرغم من توعد بوتين بخطابه في ذلك اليوم بسحق المتمردين. فقوات فاغنر كانت تتقدم نحو العاصمة بأربعة أرتال عسكرية كبيرة واضحة، تضم من 150-400 آلية عسكرية، سالكةً الطريق الاستراتيجي السريع M4، بدون أي مقاومة تذكر، بحسب ما أورده حينها موقع "ريبار" العسكري الروسي. فضلاً عن قيام قوات فاغنر بإسقاط طائرات عسكرية للجيش الروسي، بعد ثلاثة أيام من انتهاء التمرد نشرت وزارة الدفاع الروسية صور الطيارين والأطقم الجوية الذين قُتلوا في ذلك التمرد، 8 من طاقم طائرة شحن عسكرية روسية IL-22، وإثنان من طاقم مروحية روسية. هذا التساؤل أثار موجة من التهكم في الرأي العام الروسي، حيث تناقل الروس في منصات التواصل الاجتماعي مقولة "الآن عرفنا ماذا نفعل لو هاجمتنا قوات الناتو، نحفر الاسفلت ونتصل بلوكاشينكو!"، في إشارة إلى إجراءات القوات الروسية بقطع بعض الطرق والجسور التقريبة إلى موسكو عندما أصبحت قوات الفاغنر على مشارف العاصمة. هذا التساؤل قاد إلى تساؤلات آخرى حول حقيقة هذا التمرد، هل هو عفوي وليد اللحظة، أم هو تمرد مخطط له مسبقاً، أو مسيطر عليه

وعلى مألاته؟ سواء من بوتين أو من أعدائه. وإذا كان هذا التمرد حقيقي وعفوي لماذا لم يتدخل بوتين بجدية لانهاء الخلافات بين بريغوجين والقيادة العسكرية الروسية وتهدئة هذه الأزمة التي تتصاعد منذ شهور؟ كيف حصل هذا التمرد مع كل العلاقة الصميمية التي تربط بين بوتين وبريغوجين؟

كل هذه التساؤلات أطلقت العنان لانتشار عدة سيناريوهات انطلقت من مخيال المراقبين للشأن الروسي، لتفسير ما حدث في يوم تمرد الفاغنر، منها ما ذهب إلى أن بوتين هو من خطط لحدوث هذه الأزمة، حتى يكشف من سيتعاطف مع تمرد الفاغنر من النخب العسكرية والسياسية الروسية، بمعنى يريد التعرف على من لديه استعداد لخيانته في المستقبل. ومن السيناريوهات ما ذهب إلى أن هذا التمرد تم الاتفاق عليه مسبقاً بين بريغوجين وأطراف غربية، إلا أن بريغوجين أنقلب عليهم في اللحظات الأخيرة.

في الواقع، وفي ظل استمرار شحة المعلومات المؤكدة عن خفايا انقلاب فاغنر الخاطف، لا يمكننا البناء على سيناريوهات تستند على التكهنات لا على الحقائق. ولكن يمكننا التوصل إلى استنتاجات مبنية على تحليل منطقي للمعطيات الجلية لهذه الأزمة. المفكر الروسي ألكسندر دوغين، المعروف بدعمه لبوتين ولحربه على أوكرانيا، قال عن ذلك التمرد بأن "الكثيرين لم يستطيعوا استيعاب وفهم أحداث 24 حزيران, لذلك يلجأون للقول بأن كل شيء لم يكن حقيقياً, أو كل شيء كان معداً مسبقاً, ولكنني أقول لهؤلاء بأن كل شيء كان حقيقياً في 24 حزيران...لقد وقفت روسيا في ذلك اليوم على حافة الهاوية". وخلال الإعلان عن وساطة لوكاشينكو قال دوغين "لوكاشينكو زعيم حقيقي..إنه ينقذ بلدنا".

مما سبق، يمكننا الاستنتاج بوجود خلل واضح في المنظومة السياسية والأمنية في روسيا، فهنالك على ما يبدو "ارتخاء" في قبضة بوتين وتراجعاً في قدرته على القيادة والسيطرة على المشهد الأمني والسياسي في روسيا، كذلك لا يمكن انكار الارتباك والضعف الواضح في التنسيق بين الجناح السياسي والجناح العسكري في النظام الروسي، فضلًا عن وجود ثغرات كبيرة في تدابير الأمن الداخلي في روسيا تجاه الاضطرابات المسلحة المحلية، بدليل أن قائد قوات الحرس الوطني الروسي الجنرال فكتور زولوتوف، وهي القوات المعنية بشكل مباشر بتدابير الأمن الداخلي في روسيا، قد أعلن بعد يومين من انتهاء ذلك التمرد، بأنه قد طلب من الرئيس بوتين ضرورة أن يتم تجهيز قواته بالأسلحة الثقيلة والدبابات، لتعزيز الأمن الداخلي الروسي.

بل أن حتى بريغوجين قال في أول تصريح له بعد انتهاء تمرده بيومين: "ان قطعنا لمسافة 780 كم دون أي مقاومة تذكر، وتقدمنا نحو موسكو، قد كشف وجود مشاكل خطيرة في الأمن في روسيا." وأضاف بريغوجين: "بأن الهدف من حركته كان منع تدمير شركته العسكرية الخاصة - فاغنر-، ومحاسبة الأشخاص الذين ارتكبوا عددًا كبيرًا من الأخطاء أثناء قيادتهم للعمليات العسكرية، من خلال أفعالهم غير المهنية، وتقديمهم للعدالة". وأشار إلى أن قراره الذهاب الى موسكو اتخذ بعد الهجوم الصاروخي على معسكرات فاغنر. كما قال بريغوجين: "أننا ذهبنا باتجاه موسكو للتظاهر احتجاجا وليس لقلب الحكومة في البلاد. لم يقتل عناصرنا أي شخص على الأرض، لكن مقاتلي فاغنر نادمين على إسقاط الطائرات الروسية، لقد كان ذلك دفاعا عن النفس". وعن وساطة لوكاشينكو قال بريغوجين: "مد لوكاشينكو يده وعرض حلولًا وضمانات، وعادت الأرتال إلى الوراء وذهبت إلى المعسكرات الميدانية".

رئيس لجنة الدفاع بمجلس الدوما (البرلمان الروسي) أندريه كارتابولوف صرح بعد انتهاء التمرد بأيام قليلة، بأن بريغوجين قبل شروعه بالتمرد بفترة كان قد رفض تنفيذ قرار لوزارة الدفاع الروسية بإبرام عقود لجميع عناصر الشركات الأمنية الخاصة مع وزارة الدفاع، وبالتالي تم تبليغه بأن الوزارة ستوقف تمويل قوات الفاغنر وامدادها بالعتاد.

أخطر ما صدر عن بريغوجين في رسائله الصوتية الغاضبة التي كان يبثها في يوم التمرد، هو كشفه للعدد الحقيقي للخسائر الروسية في الحرب الأوكرانية من جهة، وتشكيكه بالدوافع الروسية لخوض الحرب في أوكرانيا، عندما قال "ان الحمقى في القيادة العسكرية الروسية ضحوا بـ100000 من شباب روسيا بسبب أخطاؤهم الكارثية في قيادة العمليات في أوكرانيا" و "ان هؤلاء الحمقى تحمسوا للحرب في أوكرانيا من أجل الترقيات العسكرية ومصالحهم الشخصية".

بريغوجين عندما يطلق هكذا تصريحات، هو يعرف جيداً بأن هنالك جزء من الرأي العام الروسي يؤيده، بل هنالك جزء من المنظومة السياسية والعسكرية الروسية تؤيد طروحاته، وهذا مؤشر قوي على وجود "تململ" في الداخل الروسي من أعباء الحرب في أوكرانيا، لذلك بوتين هو الآن بحاجة ماسة إلى إعادة تنظيم الجانب المعنوي للشعب والجيش الروسي، حيث أن مواقف وأحداث تمرد الفاغنر أظهرت بوتين والجيش الروسي بمظاهر الضعف. وبالفعل عقد بوتين سلسلة من الاجتماعات بالقيادات السياسية والأمنية بعد يومين من انتهاء التمرد، ركز فيها على رفع الجانب المعنوي للأمة الروسية. ولكن ما زالت الصورة الذهنية لموقف بوتين من مصير قوات الفاغنر وقائدهم مشوشةً، خلال كل الخطابات التي ألقاها بوتين بعد انتهاء التمرد، نجده مرةً يصفهم بالأبطال الوطنيين، ومرةً يصفهم بالخونة والمتآمرين. كذلك تصريحات القيادات العسكرية الروسية حول مصير الفاغنر هي الأخرى متباينة. فمنهم من يقول انهم سيسحبون الأسلحة والدبابات والمعدات الثقيلة من الفاغنر، ومنهم من يقول بأنه سيتم دمجهم بالجيش الروسي، ومنهم من يقول انه سيتم تسريح الذين لديهم سجل جنائي من عناصر الفاغنر. ما نستطيع قوله في هذا الصدد بأن العصر الذهبي لقوات الفاغنر انتهى بهذا التمرد.

ردة فعل الغرب تجاه تمرد الفاغنر

ردة فعل الغرب تجاه تمرد الفاغنر كشفت هي الأخرى وجود اخفاق كبير في الاستخبارات الغربية، فلم يصدر ما يشير إلى وجود معلومات مسبقة "دقيقة" لدى الغرب عن توقيت وآلية بدء ذلك التمرد، ربما هم لديهم معلومات عن نوايا بريغوجين بالتمرد، ولكنهم لا يعلمون كيف ومتى، فمن غير المقبول أن الجيوش المنخرطة في حرب شبه عالمية ضد روسيا على الجبهة الأوكرانية، ليست لديهم خطط عسكرية مسبقة لاستثمار سحب مفاجيء لـ 25 ألف مقاتل من الفاغنر بكامل أسلحتهم ومعداتهم من الجبهة، وتحركهم عكسياً نحو العمق الروسي.

سياسياً، بعد حدوث تمرد الفاغنر، أكد معظم القادة والمسؤولين الغربيين على هشاشة الأوضاع في روسيا، وأن هنالك توترات داخل النظام الروسي، مشيرين إلى أن جهود الغرب وتكاتفهم في إطار الحرب في أوكرانيا، سبب رئيس يقف وراء خلخلة الأوضاع في روسيا. من جهة أخرى أشار تصريح لوزارة الخارجية الأمريكية بعد يومين من انتهاء تمرد الفاغنر، إلى أن الأوضاع ما زالت متحركة في روسيا، ومن غير الواضح ما هي التداعيات النهائية لذلك التمرد.

لا يمكن فصل تداعيات تمرد الفاغنر عن تفاعلات الحرب في أوكرانيا، وبحسب تحليلات الصحافة الغربية، فأن الدوائر الغربية غير راضية عن سرعة تقدم القوات الأوكرانية في استعادتها للأراضي التي احتلها الروس، وأن الجيش الأوكراني إذا ما استمر بالقتال بنفس الوتيرة الحالية، فأنه يحتاج إلى ربما إلى أكثر من 15 سنة حتى يحرر كامل أراضيه. بعض تلك التحليلات ذهبت إلى أنه إذا لم يحرز الأوكرانيون تقدماً كبيراً هذا الصيف، ربما سيرغب الغربيون ببدء مفاوضات سلام مع الروس.

خاتمة

ليس من السهولة فهم الأوضاع وتطورات الأحداث في روسيا، أو مقارنتها بأحداث مماثلة في أماكن أخرى من العالم، أو تقييمها وفق معايير متعارف عليها، فروسيا لها طبيعتها الخاصة في التفاعلات السياسية والأمنية، ولها تقاليدها الخاصة في إجراءات إدارة الدولة، التي لا تشبه بلداً آخر، لذلك على المتصدين لتناول الشأن الروسي سبر أغوار الشخصية الروسية والتعرف أكثر على خصائصها، وعلى الموروث السياسي والثقافي لهذا البلد، وتراكماته التاريخية. وبالعودة لمقولات تشرشل، فأنه وصف روسيا بأنها "أرض غامضة وخطيرة، تلعب بقواعدها الخاصة".

ولكن بالرغم من هذه الفرادة الروسية، يمكننا القول بأن تطورات الأحداث والمواقف التي رافقت تمرد الفاغنر الخاطف، أثبتت بأن إدارة الدولة في روسيا أقرب إلى الانموذج الشرقي من الانموذج الغربي، بل هي أقرب إلى الانموذج الشرق أوسطي.

من المراجعة السابقة لتطورات تمرد الفاغنر وتداعياته، قد يكون من المبكر القول بأن الانتصار النهائي للغرب على روسيا في الحرب الأوكرانية بات وشيكاً، ولكن يمكننا القول بأن تراجع روسيا في هذه الحرب قد بدأ، وأن الاستراتيجية العسكرية الروسية للمراحل المقبلة من هذه الحرب ستركز على الاحتفاظ بما كسبه الروس لحد الان في هذه الحرب، ومنع فقدانه تحت أي ظروف، لذلك نرى وجود خشية كبيرة حالياً لدى الغرب، من أن الضغط العسكري المتزايد، قد يضطر الروس لاستخدام أسلحة نووية تكتيكية، حينها سيتحول المشهد في الحرب الأوكرانية من مواجهة غير مباشرة بين الروس والغرب، إلى حرب عالمية مفتوحة. ■

واثق السعدون: باحث وأكاديمي من العراق، حاصل على الدكتوراه في تاريخ العلاقات الدولية، مدير قسم الدراسات العربية في مركز أورسام.